مجلـــة بدايـــات
Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد: الرابع(04) / العدد: الأول(01) / جانفي 2022 / ص ص: 133-143

السّجال في خطابنا الأدبي العربي في العصر الحديث

" الشعر الجاهلي لطه حسين ، الخيال الشعري لأبو القاسم الشابي " أنموذجين

Controversy in our Arabic literary discourse in the modern era
The pre-Islamic poetry of Taha Hussein, the poetic imagination of Abu al-Qasim al-Shabi, two models

قزيم نورة [1]

Gozim Noura[1]

[1] **جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)**

البريد الإلكتروني : n.gozim@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال:20-04-2021	تاريخ التحكيم:01-05-2021	تاريخ القبول: 27-06-2021	**تاريخ النشر**: 30-01-2022

ملخص البحث

شكلت فترة القرن التاسع عشر منعرجا كبيرا للأدباء العرب، وجعلت الكثير منهم في حيرة من أنفسهم، فلقد وجدوا أنفسهم في صراع بين التراث الذي يحملونه بين طياتهم، وبين الحداثة التي جاءت محمولة برياح الغرب وبأفكار التحضر المرتبطة بها .

تغيرت الحياة العربية بمعطياتها وآلامها وآمالها ,أصبح أدب الماضين لا يخدم العصر الحالي ،أما الحداثة الغربية فلقد جاءت مطلعة لحياة العصر، مدعية أنها المنارة التي تخرق الظلام..

تأثر الكثير من الأدباء بالحياة الغربية وأعلنوا التمرد على الحياة الماضية ،بفكرها وأدبها، من منطلق أن التراث لا يخدم الحياة المعاصرة، وليس إلا أفكارا بالية قد أكل عليها الدهر وشرب ،لقد الأدباء أنفسهم داخل متاهة الحياة المعاصرة ،ونحن نرى أن هذه الأزمة ليست إلا أزمة ضياع فكري ،وسنلتمس هذا الضياع الفكري في هذا السجال الأدبي لأديبين كبيرين هما الدكتور طه حسين من خلال كتابه الشعر الجاهلي ،و أبوالقاسم الشابي من خلال كتابه الخيال الشعري.

الكلمات المفتاحية : الحداثة، الأصالة، الصراع، الشابي، طه حسين.

Abstract:

The period of the nineteenth century represented a great turning for Arab writers and made many writers confused by themselves. The writer found himself in a conflict between the heritage that he carried between his folds and the modernity that came carried by the winds of the West. The current, as for the strange modernity, has come to the fore of the era's era, claiming that it is the candlestick that violates the darkness. Drink, yes, many authors found themselves in the maze of contemporary life, and we see that this crisis is only a crisis of intellectual loss.

I seek this loss in two great books: Dr. Taha Hassan through his book Pre-Islamic Poetry and Abu al-Qasim al-Shabi through his book Poetic Fiction.

Kays words: Modernity, originality, conflict, Chebbi, Taha Hussein

[1]– **المؤلف المرسل**: قزيم نورة n.gozim@lagh-univ.dz

1. مقدمة :

وجد الكثير من الأدباء أنفسهم في دوامة صراع فكري، في عصر شهد منعطف تحول في الفكر العربي الحديث، فذاك بالنسبة للفكر العربي هو التقاء جبلين، جبل التراث الذي يحمله الأديب في كيانه وناهض بمنهضه ،وجبل جاء محمولا مع التيارات الفكرية الوافدة، ومع عودة الأدباء المغتربين الحاملين لأفكار الآخر، فالأديب وجد نفسه في دهاليز مظلمة، لا يعرف كيف يخرج منها ليصبو إلى أدب يرضى فيه عن نفسه ،ويرضي قرّاءه ، فيصبو إلى أدب هو الأدب بعينه.

فقضية الضياع الفكري هي قضية ممتدة وعميقة والكثير من البحوث والدراسات لن توفيها حقها ،لأنها ارتبطت بالأديب وارتبطت بتصادم الثقافات والعوالم والغريزة الكامنة في الإنسان ،التي تقتضي حب التطور والبحث عن الأفضل، لضمان البقاء ،

فكيف تدارس الأدباء هذه القضية ،وكيف تصادم كل من طه حسين وأبو القاسم الشابي بهذا التراث؟

للدخول في دهاليز هذا الموضوع سنعمل بالمنهج الوصفي ،ونتطرق لكتاب أبو القاسم الشابي *الخيال الشعري*ونرى نظرته للأدب العربي ثم ننظر في كتاب طه حسين *الشعر الجاهلي* ونتطرق لكتابات الرافعي ووقوفه ضد محتوى هذا الكتاب الذي هز الرأي العربي في وقت سابق، كما سنلج إلى كتابات الدكتورة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطي وننظر في استجلاءها لهذه الظاهرة.

.2. أزمة الفكر العربي والمقياس الأدبي الخاطئ:

أصبحت مأساة الفكر دهليزا مظلما ضاعت فيه أدبية الأدباء ،بحثا عن أدب معاصر مقبول ،وغير مذموم ومرفوض ،يجد فيه القارئ والباحث والإنسان البسيط الفكر الأدبي ...فتجلى في العصر الحديث مقياس خاطئ، يعلن أنه ميزان الفكر العربي المعاصر، فاعتبر أن كل أديب غربي الثقافة أجنبي الزاد هو أدب معاصر، بينما الأديب الذي يعد منهله من الأمس، خارج عن المعاصرة ،بغض النظر عن جودة عمله الأدبي ،تقول عائشة بنت الشاطئ حول هذا المقياس الموضوع للفكر العربي «وهذا المقياس يستند إلى الفهم الشائع عن ارتباط مدرسة الفكر الغربي بالعصر الحديث ،على حين تحتاج المدرسة العربية إلى أن توغل في أعماق قديمنا ونتزود من المنابع الثقافية العريقة العتيقة ,التي تفصلنا عنها عصور طوال وننسى أن المدرسة الغربية كذلك توغل في أعماق ماضيها وتتصل بما شاءت من عصور ما قبل التاريخ وهكذا نترك هذا المقياس المعاصر يزيف مفهومها فيضع بصمتها على كل ما يكتبه، أصحاب الثقافة الغربية ولو ارتدوا إلى العصور الخوالي وتنفسوا في مناخها الأسطوري ،ونسلب الأصلاء من ذوي الثقافة العربية المعاصرة ،ولو عاشوا بروح عصرنا ورجعوا نبض وجدانه »[1]

فهذا المقياس عبارة عن مغالطة موضوعية لدراسة الأدب ،ساذجة إلى حد يمكن لأي أحد أن يعرف أنها مجرد مغالطة لا ترمي إلا بإخراج الأديب والعصر من هويته و أصالته ،فالمغالطة كل المغالطة ، أن نصف بالتخلف والغيبية لكل من يتصف بالقديم. ويكشف عن عمق تواجدنا.

ومسرحيات شكسبير تعد من الماضي ورغم ذلك لو أوجدها أديب في كتابه في العصر الحديث اعتبر من المعاصرين ،وأدبه لا تغشاه شائبة وإذا ما أطل الفكر بتراث الغرب نعت بالمعاصر المجدد...

فيظل الأديب بين رحى الفكر ،هائما في فيافي الأدب ،لا يعلم من أين يستمد بذور ملكاته، فظل في ظلام الفكر العربي الحديث ،تائها فهو إن أخذ منهله من القديم ،وأخذ منه، نعت بالتخلف، وجاءته أعاصير الأدباء الذين يدعون أنفسهم بالتحضر والحداثة تنتقد،وتصفه بالتخلف والجهل لأحوال الأمة ،وأنه فكر أعوزه التحضر والمعاصرة، فهذا الأدب لا يعلوا لأن يكون منتميا لهذا العصر، الذي شهدا تغيرا على مختلف قطاعات الحياة..

وإن جاءهم الأديب بالجديد فخرج شاعرهم عن الوزن وكسر القافية ،وخرج ناثرهم عن الطوابير التي اعتادوها ،وصفوهم بالزندقة ،وإن جاء بالذي لا يعتاد ،بلغ فيهم الوصف إلى خروجه من الملة ،ووصفه بالإلحاد ،فبات الأديب السائر نحو الحداثة ،مواليا للأخر (الغرب) ،فبات الأديب بين رحى الفكر في عصر الحديث .

عرف العصر الحديث صراعات فكرية جمة وأدباء كثر إن لم نقل جلهم عاشوا في هذه المأساة الفكرية، فارتأينا للخوض في غمار هذا الضياع الفكري الولوج لفكر أديبين كبيرين أثارت أفكارهما ضجة كبيرة الأديب الكبير طه حسين من خلال كتابه الشعر الجاهلي هذا ونرى فيه رؤيتنا إلى جانب الأديب الكبير والشاعر الشاب أبو القاسم الشابي من خلال كتابه الخيال الشعري.

ولولوجنا لمأساة الفكر العربي الحديث ، هذان الكتابان نلمس فيهما عمق المأساة رغم وجود الكثير من الأدباء والكتب التي أثارت جدلا واسعا في الفكر العربي الحديث فقد أخذنا هذان النموذجان . ونحن نرى أنهما بالأهمية بما يكون ليبنا لنا أزمة الضياع الفكر في العصر الحديث .

1.2.أبو القاسم الشابي (الخيال الشعري) بين رحى الفكر:

أبو القاسم الشابي كان شابا طموحا ذا نفس سامية للمعالي ،وخيال شاسع لا يحده زمان ولا مكان ،ونفس حساسة مأخوذة لكل ما هو جميل، منفورة من الجمود والتحجر ،ورأى رحمه الله تعالى أن الأدب العربي يخلو من كل جميل ،وهذا عائد أن يده لم تسقط إلا على كل ما هو متحجر، من الأدب العربي، فجعله ذلك ينفر من الروح العربية، إلى مزارع الروح الحساسة الغربية ،التي في نظره تفيض حنانا ورومانسية ،فكان « مبرما من الأدب العربي، فصار إلى حد النفرة من الأدب العربي عامة ،فلقد عاب على العرب ضيق خيالهم ،وانصرافهم للمادة ،دون العاطفة لأن خيالهم، لا يطير بجناحين ،وأن بيئتهم القاسية الجافة لا يمكن أن تمنح أهلها السمو في التصوير والتلوين »[2] كما عرف الشاعر بقوميته ومحبته الشديدة لوطنه ،وكرهه للاستعمار وللجمود الفكري ،الغير قابل للتجديد، وحب الحياة ،فهو كان يصف حالهم أنه أقرب منهم للموت ،منهم للحياة .

وهو ثائر عن كل ما هو قديم، بجملته ولم يختص منه شيء ،ووصفه بالجمود والتحجر الفكري، وقد بين هذا في كتابه الشهير "الخيال الشعري عند العرب " ، وأظهر فيه أيضا خلو الشعر العربي من الخيال الذي يصنع الجمال ،مبينا تأثره بالمنهج الغربي والأدب الغربي ،ويراه أكثر تعبيرا وجمالا ، أيضا أعلن فيه التمرد عن القديم، واعتبره خاليا من الذوق والجمال ورأى أن الأدب القديم ليس إلا صخرة صماء ،تهوي عليها الصخور لتعود وترتطم وتعود من حيث عادت، فالأدب القديم والموروث لا يغني ولا يسمن من جوع، وترى عائشة بنت الشاطئ أن أبو القاسم ليس إلا مثالا لمن ضاع فكرهم في زمن الصراع ،ولم يصلوا فيه إلى الحقيقة بل غاصوا فقط في القيعان المظلمة من التراث التي لا توجد فيها إلا الأجساد الخالية من الأرواح فمأساته ، هي مأساة جيل وهي مأساة ضياع فكري تقول عائشة بنت الشاطئ ((وهذا ما يعطي كتابه الخيال الشعري عند العرب ’،قيمته الكبرى حيث هو مادة صادقة، لفهم أزمة هذا الجيل من العرب ،ومع تقدير صدوره من شاعر لا ترقى إلى قوميته شبهة،, ولا تسوب إخلاصه لعروبته شائبة من شك أو إتهام » [3]،فلا يختلف على قومية الشابي ،وهذا ما نقراه في ديوانه يقول أبو القاسم الشابي في ديوانه في قصيدة

إلى الشعب :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟.....أين الطموح، والاحلام؟.

أين يا شعب روحك الشاعر الفنّان ؟ .....أين الخيال والإلهام ؟

أين يا شعب فنك السَّاحر الخلّاق؟ ....أين الرُّسوم والأنغام؟

إن يم الحياة يدوي حواليك ....فأين المغامر المقدام ؟

أين عزم الحياة لأشيء إلا.... الموت ،والصمت والأسى والظلام [4]

فالشاعر أبو القاسم الشابي شاعر يعتد بقوميته و وطنه ،فلا يختلف اثنان عن أن نظرته للتراث، ليست نظرة شخص محب للغرب ،ورافض لقوميته ،إنما هي نظرة أديب متطلع ،ومأخوذ بفلسفة الجمال والحب..

فقوميته، لا يختلف عليها اثنان ،تقول بنت الشاطئ «وهذا الصراع بين الثقافتين العربية والغربية يتصل من قرب بمأساة الضياع الفكري، التي ترهق جيلا من شباب الامة ؛وتضغطهم بين شقي الرحى .وقد دأب قومنا على أن يتهموا كلَ ثائر على القديم بالمروق، ويصموه بوصمة الانسلاخ ،من قوميته ،لكني لا أتصور أحدا منهم يجرؤ على اتهام أبو القاسم بشيء من هذا ،'وهو الذي ناضل بكل إصرار وبسالة في سبيل قوميته ومضى شهيدا من شهدائها» [5]فالشاعر ساخط على الماضي ،وإذا ذكره لا يذكره إلا بعبارة الموت والكأبة ،يقول في ديوانه أغاني الحياة في خاتمة قصيدته

إلى الشعب:

أنت دنيا يظلها أفق الماضي وليل الكأبة الأبدي

مات فيها الزمان والكون إلا أمسها الغابر، القديم، القصيُ.

والشقيُ الشقيُ في الأرض قلب يومه ميت، وماضيه حي

أنت لا شيء في الوجود فغادره إلى الموت فهو عنك غني.[6]

فالمتأمل لديوان أبو القاسم الشابي يلتمس حبه للحياة والجمال ،مجنوح إلى الخيال والآمال ،محب لشعبه و قوميته ،غير أن مأساته أنه حين اطلاعه على التراث ، لم يضع يده على التراث الأصيل والجميل ،بل رأى النماذج التعيسة، التي كانت في ذاك العهد ،و إلى الآن مزال بعض أساتذة الجامعة يحاضرون بها، تقول عائشة بنت الشاطئ منبهرة به «ويبهرنا إخلاص الشاعر وحماسه في الدعوة ،إلى التحرر من الجمود كما يبهرنا جرأته في إيقاظ قومه من فتور الغفوة وخدر النعاس »[7]وفي خضام فكره تقول مستطردة «ولم تكن مأساة الشاعر كما قلت في إشارتي إليه عندما تحدث عن المناخ الفكري لأدبائنا المعاصرين ،انقطاع صلته بماضي تراثه وجذور وجوده ,،فالشابي في كتابه قد عرف أدبنا العربي كما يعرفه زملاؤه أبناء المدرسة العربية ،وكان حظه من الثقافة العربية، أوفر من حظه في الثقافة الغربية ولكن المأساة ،أنه أطل على الأدب العربي من جانبه المظلم وتصور أنه وصل إلى النبع، ثم عاف ورده الآسن ،دون أن يدري رحمه الله تعالى –أنه إنما وقف عند حفر عفنة راكدة، ليس فيها من تراثنا إلا ما اختاره جامعيون ينتمون إلى العصور الوسطى مزاجا وذوقا ،وهذه النصوص المختارة التي لا تزال تقدم أتعس النماذج إلى طلاب الأدب العربي قد أقامت الحجب والإرصاد بين أبي القاسم وبين النبع الصافي المغيب في الظل » [8]

يقول الشاعر في مطلع كتابه الخيال الشعري ،عند العرب «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة، ملؤها العزم والأمل ،ومن يتطلب الحياة، فليعبد غده الذي في قلب الحياة ...أما من يعبد أمسه وينسى غده، فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة»[9]

ويقول متعلقا بالصوت الغربي ليس حبا، في الغرب بل في إجادة الفكر الغربي ،في الوصول إلى الجوهر واللباب «إن الصوت الغربي أقوى دويا وأبعد رنينا من الصوت العربي الخافت الضعيف ،لأن الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آن واحد ،لحن يتصل بأقصى قرار ،ففي النفس ولحن متصل بجوهر الشيء، وصميمه، أما الصوت العربي فليس مصدره النفس ،ولا جوهر الشيء ولكن مصدره الشكل واللون والوضع ،

وشتان بين القشرة واللباب » [10] ،فهذه هي رؤيا أبو القاسم الشابي للتراث العربي ،وما هو إلا أديب ضاع فكره فضاعت أفكاره، وتشتت، لأنه لم يضع يده على مكمن الجمال، والأصالة ،و ليس مذنبا بشيء ،سوى وجوده في عصر ارتفع فيه التراث العقيم من الخيال الشعري ، بينما الدرر والنفائس منه بقيت في رفوف مظلمة تنظر من يخرجها إلى النور لتظهر جمالية تراثنا العربي ، الموجود بكثرة من تراثنا العربي وبكثرة لا يعدو حقا أن يكون «أصداء جامدة ،لم تتذوق لذة الخيال، وأوهاما شاردة ،لا أثر فيها لنبض الحياة، وحس الوجود» [11]فهذه قصيدة البحتري تروي لنا التراث ،لم يكن عقيما من الخيال ،و لا جاحدا ،للجمال يقول الشاعر البحتري:

أتاكَ الرَبيعُ الطَلَقُ يَختالُ ضاحِكاً مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَلَّما
وَقَد نَبَّهَ النَيروزُ في غَلَسِ الدُجى أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُوَّما
يُفَتِّقُها بَردُ النَدى فَكَأَنَّهُ يَبُثُّ حَديثاً كانَ أَمسِ مُكَتَّما
وَمِن شَجَرٍ رَدَّ الرَبيعُ لِباسُهُ عَلَيهِ كَما نَشَّرتَ وَشياً مُنَمنَما
أَحَلَّ فَأَبدى لِلعُيونِ بَشاشَةً وَكانَ قَذىً لِلعَينِ إِذ كانَ مُحرَما
وَرَقَّ نَسيمُ الريحِ حَتّى حَسِبتَهُ يَجيءُ بِأَنفاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّما

فلقد أسند الضحك إلى الربيع ،الذي تزهر فيه الزهور وتغرد فيه العصافير ،وتكون فيه خلابة ،فهذا التصوير الجميل، يبين لنا أن تراثنا ليس خاليا، من الجمال والطلاقة ،فالقصد جاء، وصف الربيع كأنه عيد على الطبيعة ، فالشابي لم يضع يديه على التراث الآسن ،بل كل ما طلع عليه من تراث هو ما توراد وجوده عبر الأجيال ،والذي ليس إلا جزءا من تراثنا الكبير الزاخر بالعطايا.

فهو ،يرى أن أدب العرب على الإطلاق لا سمو فيه ولا إلهام، ولم ينظر إلى صميم الأشياء .

الشاعر الكبير، كان ممن خاض في السجال ليعلوا بالأدب العربي ،ويصبح الشاعر فيه صوتا للحياة والجمال. رغم العاصفة الفكرية الظلامية ،التي لم يجد فيها ما يوجد به شاعريته، وهذا ناتج عن مأساة الفكر الناتجة ،عن طلوع الموروث الرديء إلى الواجهة ،وجعل الموروث الثمين في زوايا مظلمة ،بعيدة عن الباحث والقارئ ...فرحم الله تعالى شاعرنا الكبير أبو القاسم الشابي فقد صاح صيحة ضد القديم ومن جعله مقدسا، وصاح صيحة مازالت موجودة بوجود الأدب ضد الظلم والقيد ..رحم الله الشاعر أبو القاسم الشابي.

2.2.طه حسين بين رحى الفكر:

بداية المعركة «في سنة 1952 تحولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية ،وفي تلك السنة نفسها في بداية العام الدراسي، (1926/1925) ابتدأ دكتور طه حسين ،يحاضر عن الشعر الجاهلي محاضراته، التي أصدرها بعد ذلك في كتابه المشهور الذي أحدث ضجة هائلة ،لصدوره لما حواه من قضايا على أشد جانب من الخطورة ،وهو كتاب (في الشعر الجاهلي) ،الذي انتهى أمره إلى أن صودرت نسخه من الأسواق ،ثم حذف منه مؤلفه فصلا ،وأضاف عليه عدة فصول ،و أعاد إصداره بعد ذلك بعنوان (في الأدب الجاهلي)، وما إن وقعت نسخة من الكتاب ،في يد المرحوم مصطفى صادق الرافعي ،حتى كتب مقاله بعنوان (قال إنما أوتيته على علم ،بل هي فتنة)وهي مقالة طويلة استغرقت في الطبعة الثالثة ،من «كتابه :تحت راية القرآن ،ستة عشرة من صفحة من القطع الكبير ثم تتابعت مقالاته، في هذا الموضوع ،تلك المقالات التي عناوين معظمها عبارات من القرآن الكريم ،تدل على مضمونها العام، و التي جمعها بعد ذلك في كتاب له سماه (تحت راية القرآن)،و هي تسمية كما ترى تثني بأنه رحمه الله تعالى كان يرى أنه جندي يرفع راية القرآن الكريم ويدافع عنها» [12]

يقول طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي «إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليس من الجاهلية بشيء؛ وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام. فهي إسلامية، تمثل حياة المسلمين، وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلين، وما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح ،قليل جدا، لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة، لهذا العصر الجاهلي. إن ما نطالعه على أنه شعر إمرئ القيس، أو طرفة أو عمر بن كلثوم أو عنترة، ليس من هؤلاء في شيء ،وإنما هو انتحال الرواة ،أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص ،أو اختراع المتكلمين ،و المحدثين والمفسرين»[13] فنظرته للأدب الجاهلي والشعراء بالأخص نظرة قاسية ،غير واضحة المعالم، فهو يرى أن مناط انطلاقه في هذه الدراسة العقل، وأن العصر المعاصر يقتضي البحث والتثبت القائم على العقل الذي يقوم على الشك ، يقول معبرا عن منهجه في استسقاء أدبه ،والخوض في الأدب الجاهلي«نحن بين اثنين إما أن يقبل في الأدب، و تاريخه ما قال القدماء لا نتناول ذلك من النقد، إلا بهذا المقدار، اليسير الذي لا يخلوا منه كل بحث، و الذي يتيح لنا أن نقول أخطا الأصمعي أو أصاب عبيدة ،أو لم يوفق واهتدى الكسائي، أو أظل الطريق، وإما نضع علم المتقدمين، كله موضع بحث ، لقد نسيت فلست أريد أن أقول البحث، وإنما أريد أن أقول الشك ،أريد ألا نقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت، إن لم ينتهيا إلى اليقين ،فقد ينتهيان إلى الرجحان » [14] ،يقول في ختام بحثه « أن ما تناول من الشعر الجاهلي ليس بالجاهلية بشيء، فيعجب في كتابه ويتساءل عن عدم الحديث عن الحياة الدينية للجاهلية إن الذين يقرؤون هذا الكتاب، قد يفرغون من قراءته وفي نفوسهم شيء من الأثر المؤلم، لهذا الشك الأدبي الذي نردده في كل مكان من الكتاب ،.وقد يشعرون مخطئين أو مصيبين ’،أننا نتعمد الهدم تعمدا، و نقصد إليه في غير رفق ولا لين، و الذين يتخوفون عواقب هذا الهدم على الأدب العربي عامة ،وعلى القرآن الذي يتصل به هذا الأدب خاصة .،فلهؤلاء نقول أن هذا الشك لا ضرر منه ولا بأس به، لا لأن الشك مصدر اليقين ليس غير. بل لأنه قد آن للأدب العربي وعلومه أن تقوم على أساس متين»[15] رد عليه الأديب الذي يعرف بفصاحة لسانه الأديب الكبير الرافعي، في كتابه* تحت راية القرآن* حيث أورد فيه فصلا يتحدث فيه عن الكتاب مطلبا التحذير من تدريس في الجامعة واعتباره أنه موجة الحادية رغم أنه في الكتاب لم يطعن في شخص طه حسين، كل الذي أورده هو حديث عن الأفكار، ومواجهته بالفكر الصحيح حيث أورد فيه نص خطاب إلى الشيخ الأزهر والذي حذر فيه من تدريس كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) ،ويعتبر الرافعي من أكبر أدباء عصره ثقافة، واشدهم ارتباطا بالتراث العربي ،وأكثرهم دراية وقناعة به ثم لا يكتب رأيا إلا إذا امتحنه على آداب القرآن الكريم، وأصول الإسلام فما وافقه فهو رأيه ومخالفها بريء منه فالنتيجة التي انتبها إليها طه حسين لا يخرج بها باحث متمكن من مقومات الأدب العربي ،الرافعي يرى أن ما قام به طه حسين ليس تجديدا بما يعرف بالجدة والبحث والتطلع لكتابات أدبية، تخدم العصر، إنما هو مسخ وتشويه للأدب العربي، وبالتالي هو مسخ للأمة الإسلامية جمعاء، يقول «لم ينفرد الأستاذ طه حسين بانتحال الجديد، والتجديد ولا هو أول من زعم ذلك أو حامى عنه، أو كابر عليه فقد سابقه آخرون لكنه، أول من أجترأ على الأدب العربي ،

بالمسخ والتكلف وقال فيه بالرأي الأحمق ،وأداره على الوهم ،البعيد وتناوله من حيث يأخذه علما ليتركه جهلا»[16]

حيث أن محتويات هذا الكتاب إنما هي داء ينخر الأمة الإسلامية، ويفتك بشبابها ،فجهز عدته من بيان وحبر، من أجل مجابهة هذا الداء العظيم ،الذي رأى أنه وجب عليه أن يتدارك الأمر فيه ،فالحفاظ على الأمة الإسلامية واجب ،لم تكن نار الرافعي وسعيرها تخبو ضد هذه الموجة التي جاء بها طه حسين،حتى يرفع الكتاب ويعتذر الكاتب .

رأى الرافعي أنما هذه الموجة إنما هي موجة هلاك وإلحاد ،فكيف تهدأ سعير الرافعي وهو الأديب الأريب خادم القرآن وأمين أمتها ،ففي قلبه حمية الدين التي لا ترضى أن تمس مقدساتها ،ولقد راسل الرافعي المجالس العليا ،والمجلس الأعلى في الجامعة ،من أجل تدارك هذه المعضلة الخطيرة يذكر«الكتاب مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه ،لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد، لعقائدهم، والموجب للخلاف والشقاق ،في الأمة وإثارة فتنة عنيفة دينية ضد دين الدولة ودين الأمة ،ونرى أن اللجنة أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم، ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم ضد اللّادينية التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير و إحكام تحت ستار حرية الرأي ،اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام» [17].

يرى الرافعي أن كتاب الشعر فتنة وجب وأدها ،وإلا ستأكل الأخضر واليابس ،طه كان في معتقده أن مطلب الحياة المعاصرة هو التجديد لا غير يقول «كان الأدباء بأن يتجدد الأدب العربي، في هذا العصر الحديث ،كما كان يتجدد في العصور القديمة وكانوا يقولون ،إن الأدب العربي ،أدب حي ومادام أدبا حيا فلا ينبغي أن يجمد »[18]،بالغ طه حسين في بحثه عن الجدة ،وليصل إليه جعل قبلته هي الغرب، ورأى أنها المرآة الساطعة للتجديد، وبذلك يكون قد أدخل الأدب العربي في متاهة ،في غنى عنها ،فالبيئة الغربية تختلف مقوماتها وأسس بناءها تماما عن الحضارة الغربية ،والمنهج الديكارتي الذي استخدمه طه حسين في كتابه لا يخدم أبدا الأدب العربي ،فالمنهج الديكارتي لا يعترف بمبادئ الأديب، ولا بمسلماته ،والأديب العربي يعرف أن مساحة أدبه لا يمكن أن تخرج عن دائرة الدين الإسلامي.

يرى طه حسين أنه وضع الكثير من المسلمات التي تقوده إلى أن الشعر الجاهلي ، هو شعر في موضع انتحال فهو يتساءل عن عدم الحديث عن الحياة الدينية، في الشعر الجاهلي ،,إن هذا موضع شك يفصح أن الشعر الجاهلي، ليس بشعر جاهلي على حسب قوله «فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة، أو كالبريئة من الشعور الديني القوي ،والعاطفة الدينية المتسلطة ،على النفس والمسيطرة على الحياة العلمية ،وإلا فإين تجد شيئا هذا من شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة أوليس يعيز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهلين » [19]ويرى أن التماس الحياة العربية الجاهلية، إنما هو موجود في القرآن الكريم ،و أن الأمة العربية انتحلت الشعر الجاهلي ووضعته، وأن الانتحال قد عرف منذ القدم ،و لم تكن الأمة العربية، ليكون بجديد عليها « وقد قدمنا أن هذا الكذب والانتحال في الأدب والتاريخ، لم يكونا مقصورين على العرب وإنما هو حظ شائع في الآداب القديمة كلها »[20]

كأن الانتحال صفة حقا موجودة ويجب عدم الأخذ عليها، فهي سنة كونية ،وما هذا إلا تعبير طفولي لم ينضج بعد، فأن تكذب الكذبة وتصدقها وتقول فيها فإما أن تكون طفلا لم ينضج ،أومجنونا ،ولم تخرج كتاباته في الشعر الجاهلي عن إهانة الدين الإسلامي فهو يتحدث عن الرسالة النبوية وأنها لم تتم يقول «ولكنه (صلى الله عليه وسلم) توفي بعد الفتح بقليل ولم يضع قاعدة للخلافة

ولا دستورا لهذه الأمة» [21]

ولكن ألم يكن طه حسين مطلعا على شريعة أمته الإسلامية ،أم أن حب المعارضة أعمى له بصيرته ،الشريعة الإسلامية جاءت تامة مكتملة محيطة، بكل شرائع الأمة الإسلامية ،ونبينا صلى الله عليه وسلم قد أتم الرسالة وبين لنا طريق الرشد من الغي، ألم يطلع طه حسين على خطبة الوداع والتي جاء فيها الوحي مؤكدا لتتمة الرسالة وقد تلى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) المائدة الاية 03.

فالرسالة قد تمت ،وهذه نعمة كبيرة فلقد بينت لنا الطريق ،ووضع دستور هذه الأمة وحبل خلاصها ألا وهو القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ،قال تعالى (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران:)85] فشريعتنا قد تمت ولا تحتاج لزيادة أو نقصان ،يرد طه حسين «أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه ،وما كان لي أن أفعل ذلك ،وأنا مسلم، أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله ،و اليوم الآخر، وأرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشروه حيث تشاؤون » [22] ، لم يقبل الرافعي اعتذار طه حسين ،وقد أورد حجته في ذلك إلى سبعة أسباب نذكر من بينها قوله «كيف نصدق طه ،في أنه لم يرد إهانة الدين ،والإهانة في كتابه وكتابه لا يزال يباع ولا يزال الرجل مصرا عليه، لم يتبرأ منه ولا تبرأت الجامعة ،وما وردت تلك الإهانة في كتابه ،إلا ليجعلها برهانا على نظريته ،في أن العرب العدنانية لم تتخذ لغة اسماعيل التي ورد في شأنها الحديث الشريف ،والتي هي أساس لغة القرآن فإذا لم يتبرأ من هذا الرأي ويعلن أنه رجع عنه وكانت الإهانة هي البرهان الوحيد على هذا الرأي ،فكيف يقول أنه لم يردها هل يظن طه أن الأمة وعلمائها وأدباءها من البلاهة والغفلة بحيث يقنعهم هذا العذر البارد » [23]،ولقد امتعض الرافعي من كون أن الكتاب كان الوجهة المفضلة للمبشرين ،ليجدو فيه طعنا على الأمة الإسلامية ،فلكأنه الشعرة التي تقسم ظهر البعير تمنى الرافعي أن يكون طه حسين بريئا من هذا القول وهذه الوجهة ،براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام«وطه حسين لم يكن ذئبا ،ولكنا نرجو أن يرحمه الله ببراءته من تهمة كتهمة الذئب ،تعدو على النبوة وتمزق بأظافرها أديم الإسلام، وقد علمنا أنه كان بريئا منها ولكن يقال والله أعلم ،أن المبشرين وجدوا في الشعر الجاهلي ما كانوا يحومون حوله فلا يصلون إليه» [24]

يرى الرافعي أن الكتاب ليس إلا قشة في مهب الريح ،وأن لن تكون لها الحركة والمشيئة لتغير فكر أمة بأكمله ،و لكن الذي كان يؤرقه، أن يسقط الكتاب بين جهال ،وأن يمتد جهل محتوى الكتاب ،ولا يجد من يصده فتغرق الأمة في جهلها «أفلا تعلمون أن القديم لا يهدم ،إلا البتة ،لأنه هو الذي يبدع الجديد، ويشفه، فإن الهدم في أمة من الأمم ،زال الجديد بزواله ولم يبقى من الأمة إلا بقايا، لا تستمسك على حادثة ولا تقر على صدمة » [25].

ويرى أن أسلوب طه ما هو إلا أسلوب أديب يريد أن يميز نفسه عن بقية الأدباء ،فتماثلت بهذه الفكرة التي كان محلها الشك فهو « مكره على طريقته في الأدب إكراها، مادام يريد أن يكون شيئا مذكورا، وإنما كان السبيل مثله أن يتبع غيره ،ويقلد ويحتذي ولا يستنكف أن ينزل على رأي من هو أذكى منه ،ولا يأنف أن يدخل قوانين الناس، فلما أسى ذلك وغلبته طبيعته ،وأراد أن يبتدع وما فيه من الابتداع بشيء ،كان كل عمله أن يفسد عمل غيره، ولا طريق إلى ذلك إلا أن ينقاد إلى الظن » [26].

الرافعي يرجو أن يتراجع د. طه حسين ،عن آرائه التي قلد فيها الزنادقة وبعض المستشرقين ،يقول "وما نريد أن نزيد طه على ما قلنا، مما سنقرؤه في هذا الكتاب، ولكنا نرجو أن يهديه الله ،فيكون من أمته ويعود إليها، فإنه إلا يكن بها لا يكن بغيرها، وإنها إلا تكن به تكن بغيره" فمشكلة الرافعي مع طه حسين هي مشكلة فكر، متعلقة بالجديد والقديم ،ورؤية الرافعي لطه حسين رؤية واقعية، فما يعانيه طه حسين ليس إلا أزمة فكر متطلعة للتفرد ،وأزمة انبهار بالغرب، والموروث الغربي على حسب رؤية الاديب الكبير ،وأستاذنا الرافعي رحمه الله تعالى » [27]. فكتاب الشعر الجاهلي فور صدوره أعلن ضجة كبيرة، وأعتبر مضمونه ناسف للفكر العربي، فكثر مستنكروه من مختلف الطبقات فقد أخذ هذا الكتاب حظه الوافر من الشهرة، إلى جانب شهرة من خاض في استنكاره، كل يراه برؤية يقول عبد المتعال الصعيدي أن طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي قد أخذ آرائه من كتاب (ذيل مقالة في الإسلام) لهاشم العربي والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين في الإسلام فصاحب الذيل جعل التوراة هي الأصل ويعرض عليها

القرآن فإن خالفها طعن فيه. اما الدكتور فيكذب بالتوراة والقرآن جميعا) نعت عبد المتعال الصعيدي طه حسين أنه أخذ بحثه من كتاب سخيف وأنه نسبه إليه وهو الذي رفض وأنكر على سلامة موسى نقله للسان العرب وعدم إرجاعه لكاتبه الحقيقي.

وهذا رد الأستاذ محمد طاهر نور والذي يرى أنها مجرد تخيلات يريد طه حسبن بناء واقع منها. فالأستاذ المؤلف إذا سئل عن شيء يقول لا دليل عليه من الأدلة فكتابه مبني على الشك المحض..... فطه حسين في كتابه الشعر الجاهلي هذا فرض فرضه دون أن يطلع على كتاب آخرين.

و كان تقرير كل من الأساتذة محمد أحمد الغمراوي ,احمد العوامري ,محمد عبد المطلب أن كتاب الشعر الجاهلي لطه ،مس بالعقيدة الإسلامية والقرآن الكثير وأنه كتاب مسموم ينفث سمه في الأجيال الصاعدة، ورغم إعادة نشره لكتابه الأدب الجاهلي الذي قال إنه استدرك فيه أقوالا وحذف منه أقوالا تمس بالدين على قولهم فالحبال التي رماها المؤلف لم تتغير «إضافة الى توافد الكثير من الردود والمؤلفات التي ترد على أفكار طه حسين في كتابه أمثال فؤاد إفرام البستاني ' الدكتور عبد الحميد سعيد '. استاذ محمد الخضر حسين التونسي ((نقض كتاب الشعر الجاهلي)). ((نقد كتاب الشعر الجاهلي)) للعلامة محمد فريد وجدي. ((الشهاب الراصد)) لمحمد لطفي جمعة .إلى جانب السيد محمد الدين الخطيب »[28] فأفكار الكتاب الشعر الجاهلي هي مأساة فكرية ،تمس الدين قبل مساسها بالأدب وهذا ما يبين أن هناك وحدة الفكرية بين الدين والتراث الإسلامي وبين الأدب.

لم تهدأ روح الرافعي حتى أوقف الكتاب وسحب من الأسواق واعتذر طه حسين على مؤلفه ووضع بدلا عنه الأدب الجاهلي.

3.في ظل رحى الضياع الفكري:

ترى الدكتورة عائشة بنا الشاطئ في هذا المنظور رؤية جوهرية، تجلوا بها سحابة الضياع الفكري ،التي تغشى الأديب وتؤرق نومه ،وهي "التراث بروح المعاصرة " ،تقول عائشة بنت الشاطئ «ولابد من ضبط هذا الاختلال فنرفض منطق المعاصرة كل ما انعزل على وجودنا، دون أن يخدعنا انتماء الأديب، إلى مدرسة حديثة أو قديمة غربية وشرقية وتقبل كل ما كان معبرا عن جانب وجودنا منفعلا بذاتيتنا مها يكن منهله. مادام قد

صار عنصرا من عناصر شخصيتنا» [29]

فهذا المقياس الضابط يلتقف الأديب من التيهان، في منعرجات الأفكار ،فتتساوى الأفكار العربية، التراثية مع التراث الغربي، الوافد إلينا مع عودة المهاجرين، إلى بلدانهم فهذا يتساوى أمامه ،أيضا مؤلف، في صعيد مصر، أو ما أحضري من مدن الأجانب، فالمعاصرة تقتضي الذات الوطنية ،الممزوجة بفكر الأنا «ولا يكسب صفة المعاصرة من الأعمال الأدبية سواء منها ما أوغل في العصور الخوالي وما كان من البضاعة الحاضرة فيه إلى نبض حياتنا، بأبعادها المترامية ،وأعرضوا على هذا المقياس الضابط كل الأعمال الأدبية. في مختلف أنواعها وفنونها وشتى مناهلها ومصادر إيحائها. يحدد لكل منها موضعه من المعاصرة دون أن يضطرب أو يختل وأعرضوا عليه أدباءنا المحدثين على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم وتفاوت منابع ثقافاتهم وأجواء فكرهم يحدد لكل منهم مكانه في وجودنا الأدبي دون أن يزيف أو يضلل» [30]

.4.نتائج البحث:

-الأدب هو سجل الأمة وسجالها، وفيه حياتها أملها وآلامها ،وأن يبحث الأديب عما يخدم به أمته، التي لا تستكن لأثر، وتطلب دائما الجدة ذلك ليس بالخاطئ ،ولكن المعضلة تكون في أن يكون الأديب ضد تيار أمته وهويته .

– في القرن التاسع شكل الصراع الفكري موجة خطيرة عصفت بالأمة جمعاء ،وما الأديب إلا لسان حال تلك الأمة ، ظهرت هذه المعضلة ،وتبينت في كتابات الأدباء، وما طه حسين والشابي ،إلا أثر لذلك السجال.

-السجال الفكري أظهر لنا أهمية أن يكون الأديب نبراسا يشع من أجل أن يحافظ على هوية الأمة ومقوماتها وهذا ما تمثّل لنا في كتابات الرافعي .

- التراث مورد خصب للأفكار والعلوم والآداب ، وهو جزء لا يتجزأ من الوطنية، ومحاولة رفع التراث أجمع وادراك النفائس منه هو خدمة للوطن والأمة جمعاء ، كما أن الصعود به إلى الأجيال الجديدة هو صفقة رابحة ،فربما وجدوا مالم تجده الأجيال القديمة من كنوز وقيم فكرية تصعد وترقى بالمجتمع الإسلامي .

-يجب على الأديب ألا يخرج بفكره عن المقومات الإسلامية فهي الإطار الذي يجب ألا يتجاوزه أي شخص، لأنه ديننا وبطاقة هويتنا في هذه الدنيا ،والآخرة ،كما يجب وضع مؤلفات بالحجة والبرهان، ضد كل من تسول له نفسه المساس بالهوية الإسلامية، مثل مساهمة الرافعي بكتابه، تحت راية القرآن ،وعدم الطعن في الشخص بل في الفكر وهذا ما تمثلناه أيضا في رد الرافعي على طه حسين .

الهوامش

[1]- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ ,قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر, دار المعارف, الطبعة الثانية ,مصر.1970.ص177

[2]- إبراهيم السامرائي ،نصوص ودراسات عربية وافريقية في اللغة والتاريخ والأدب ،وزارة الإعلام مديرية الثقافة المؤسسة الوطنية للصحافةو للطباعة ،بغداد،ص24

[3]- مرجع نفسه ، ص 195.

[4]- أبو القاسم الشابي. اغاني الحياة. الدار التونسية للنشر. بدون طبعة. تونس.1970ص250

[5]- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ،قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر, مرجع سابق ،ص195.

[6]-مرجع نفسه ،ص 253

[7]- مرجع نفسه ،ص196

[8]- مرجع نفسه ،صفحة نفسها .

[9]- أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب. كلمات عربية للترجمة والنشر. بدون طبعة. القاهرة. 2013.ص10

[10]- مرجع نفسه، ص 73

[11]- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، مرجع سابق،ص197.

[12]- إبراهيم عوض،معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين ،مطبعة الفجر الجديدة،مصر،1987،ص09.

[13]- عبد المنعم تليمة. طه حسين في الشعر الجاهلي. رؤية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. القاهرة.2007 .ص1

[14]- طه حسين. في الشعر الجاهلي. مكتبة دار الندوة الالكترونية. بدون طبعة. القاهرة.1927 .ص3

[15]- مرجع نفسه ،نفس الصفحة

[16]- مصطفى صادق الرافعي ،راجعه درويش الجويدي،تحت راية القرآن ،المعركة بين القديم والجديد ،المكتبة العصرية ،بيروت،2002،ص80

[17]- مرجع نفسه ،ص129.

[18]- طه حسن ،أدبنا الحديث ماله وماعليه،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،مصر،ص16.

[19]- طه حسين الشعرالجاهلي ،دار المعارف للطباعة والنشر،تونس،ص31.

[20]- مرجع نفسه ،ص136.

[21]- مرجع نفسه ،ص63

[22]- مصطفى صادق الرافعي ،راجعه درويش الجويدي،تحت راية القرآن ،المعركة بين القديم والجديد ،مرجع سابق ،ص139.

[23]- مرجع نفسه،ص138.

[24]- مرجع نفسه ،ص161

[25]- مرجع نفسه ،ص161

[26]- مرجع نفسه ،ص193

[27]- ينظر، أبو أيوب من رد على طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي .ملتقى أهل الحديث.

[28]- ينظر،بتصرف أنور الجندي. المساجلات والمعارك الأدبية. في مجال الفكر والتاريخ والحضارة. مكتبة الآداب. الطبعة الثانية 2007م.ص102الى111.

[29]- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر،مرجع سابق،.ص178

[30]- مرجع نفسه ،ص179.